

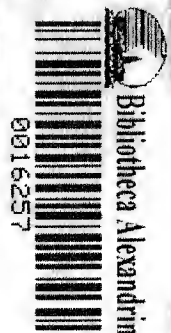
سورة العنكبوت

فَحْيَا الْعَرَافِينَ

الشيخ
محمد الصايف



المكتبة التوفيقية



محمد الصّائم

مَوَازِيهِ التَّوَلُّوبِ
وَحَيَاةُ الْغُتَّافِينَ

الملكبة البوقية
لما الباب / الأظفر / ١٩٥٩
ت : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠



﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾

[الإسراء : ٤٦]

قال رسول الله ﷺ :

« ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

[رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد الله

النعمان بن بشير]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، مقلب القلوب ومغير الأحوال بيده مقاليد الأمور .
وأمره على كل شيء غالب .

ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين الذى أحيا القلوب بدعوته وأضاء
الأفئدة بسترته . سيدنا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين . .

وبعد

فقد نظرت متأملاً أحوال بنى البشر فوجدتهم يعيشون فى غفلة ، تجرفهم
الأحداث وتستولى عليهم الأهواء ، ينغمسون فى ملذاتهم ، تمر بهم الأيام
وتنتهى منهم الأعمار وهم فى غفلة سوادها غلّف القلوب . . . فأصبحوا
يعيشون بأجسادهم وقلوبهم فى موات . إلا من رحم الله .

إن البعض ليصنع الذنب مُستهيئاً به غير مبالٍ بما يترتب عليه فى الدنيا من
ضنك وفى الآخرة من عتاب ، نرى الناس يهربون من حرارة الشمس إلى ظل
يأويهم ولا يتذكرون نار جهنم ومن منها يأويهم ؟ ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ
الْمَفْرُجُ ﴾ (١) ؟

من أجل أصحاب القلوب التي ران عليها عفن الذنوب . فأصبحت حياة ميتة
لا تدرك العواقب ولا تخشى خالقها - من أجل هؤلاء - أكتب اليوم كتابى
هذا حتى يفيق هؤلاء من غفلتهم ويعلمون أن وعد الله حق . وذلك قبل فوات
الأوان - القلب ملك فإن فسد الملك فماذا تفعل الرعية ؟

(١) القيامة : ١٠ .

أيها الغافلون - يا أصحاب القلوب الميتة - توبوا إلى الله فالحياة فرصة لكم
في الرجوع إلى ربكم من قبل أن يأتي ملك الموت : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ
الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (١) .

- كتابنا تنبيه للغافلين وإيقاظ للنائمين وتذكير للناسين . . ألا فليتوبوا لعل
الله يتوب عليهم فرحمته وسعت كل شيء وهو أرحم بالعبء من أمه وأبيه . . .
ولذا يقول الحق سبحانه لعباده : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

والآن مع كتابنا « موت القلوب » نعيش في صفحات نقدمها للقراء سائلين
الله أن ينفعنا جميعاً بالعلم ومصاحبة العلماء .

هذا وبالله التوفيق

محمد أحمد محمد علي الصايم

شهرته / محمد الصايم

(١) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

القلب

أصله - و معناه

القلب

سبحان الله . . إنها قطعة من اللحم فى جسد الإنسان هى الملك وبقية الأعضاء وزراء . من القلب تصدر الأوامر وإليه تنتهي الأمور . . يتأثر بالفكر وقد يكون هو محل الفكر . . يدق مرهقاً بين الخوف والرعب – ويدق خافقاً من الهم والحزن . . ويدق مفرقاً بالحب والبهجة والسعادة . . إنه القلب . يقول البعض إنه من كثرة تقلبه سُمى بالقلب . أو لأنه فى لب الصدور فهو قلب . أو لأنه مركز الأوامر والتصديق أو التكذيب فهو قلب . . وجاء فى تعريف لغوى للقلب : أنه مضغة من الفؤاد معلقة بالنباط . . وقيل القلب هو الفؤاد (١) . . ويقول الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسانُ عن الفؤاد دليلاً
ويُعبّر شاعر آخر عن القلب فيقول :

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرئٍ إلا وصل
ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يثق الله البطل
* القلب وعاء :

القلب وعاءٌ للحب . . وهو وعاءٌ للكراهية وعاءٌ للصدق . . فجاء فى تعريف الإيمان : أنه ما نطق به اللسان وصدقه القلب وعملت به الجوارح . .

(١) انظر لسان العرب – لابن منظور – باب القاف مع اللام .

وهو وعاء الكذب . فالمنافق قلبه كذاب لأن ما به ليس هو ظاهره وذلك كما قال أحد ذهاة السياسة العربية : إنا لنضحك في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم .

* والقلب وعاء التقوى : لقوله تعالى :

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١) وذلك لأن الإيمان في القلب يُغذى بالتقوى ويضعف بالفجور والمعصية .

* والقلب وعاء لذكر الله : لأن الذكر باللسان لا قيمة له إن لم يرتبط بالفؤاد . يقول الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢) ويقول رسول الله ﷺ : « القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب »

* والقلب - أيضاً - وعاء للاطمئنان :

حيث ينزل الله فيه سكينة ويشمله برحمته . فيكون بذلك في كنف رعايته . يقول الله عز وجل :

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ (٣) .

* والقلب كذلك عند أصحاب الأهواء وعاء للزيف : - نعوذ بالله من ذلك - والزيف معناه عدم الثبات على اليقين والانحراف إلى طريق الضالين - ولذا كان الدعاء من الصالحين : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٤) وصاحب القلب الثابت يقول :

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) الأنفال : ١٠ .

(٤) آل عمران : ٨ .

رضيت بالله فى عسرى وفى يسرى فلست أسلك إلا أوضح الطرق
* وقيل للحسن : يا أبا سعيد . . . كيف نصنع ؟ نجالس أقوامًا يخوفوننا
حتى تطير قلوبنا . . . فقال :
والله إنك إن تخالط أقوامًا يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن
تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى يدركك خوف .

* القلوب القاسية :

إنها قلوب لا تتمتع بالإيمان ولا تدعن للقرآن ولا تذكر الرحمن — ملئت
بالذنوب ظلامًا فأصبحت كالحديد أو الحجارة قسوة . . لا مكان للرحمة فيها
— ولا تستوعب الحنان ولا يصدر منها إلا الخسران .

يقول الله عز وجل :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) .

وقوله تعالى :

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢) .

إنها قلوب الغافلين وأقنعة الظالمين . الذين لا يرون إلا أنفسهم ولا يحسون
بآلام غيرهم ولا يدركون معنى الرحمة وليس لديهم إحساس بالشفقة . .
ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم أحد ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

* * *

* *

(١) البقرة : ٧٤ .

(٢) الحديد : ١٦ .

القلبُ

مَلِكُ الأَعْضَاءِ

* * *

وهذا القلب الذي ينبض بين جنبيك مسكنه الصدر وهو لبُّه ، بل هو كسواد العين داخل العين فالصدر شُبّه ببياض العين والقلب كسوادها . وهو محل نور الإيمان وخشوع التقوى ودفء المحبة وفيه يتحرك الخوف والرجاء . ومنه ينطلق الدُّعاء . . . وليس للصبر مكان إلا القلب . والقناعة لا تسكن إلا فيه . وهو بئر العلم ومدخل الفكر . فيه السرائر وتنعقد بداخله النية . . يقول رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوي » (١) . ومن هنا نعرف أن عمل الإنسان يرتفع قدراً أو ينخفض بمقدار ما يحمله القلب من صدق أو كذب أو شك . . فالقلب هو الملك والنفس بذاتها وأعضائها هي المملكة . . وذلك مصداقاً لقوله ﷺ : « واليد جناح ، والرجلان بريد ، والعينان مصلحة ، والأذنان قمع ، والكبد رحمة ، والطحال ضحكة ، والكليتان مكر ، والرئة نفس ، فإذا صلح الملك صلحت جنوده ، وإذا فسد الملك فسدت جنوده » (٢) .

ومن هنا يتضح أن صلاح الجوارح بصلاح القلب وفسادها بفساد القلب . . ولذلك فإن أى عملٍ من أفعال الإنسان يصدر من النفس بدون عقد النية فى القلب — فلا قيمة لهذا الفعل — يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٣) .

(١) صحيح البخاري .

(٢) كنز العمال — فى سنن الأقوال والأفعال .

(٣) البقرة : ٢٢٥ .

ونحن حينما نقول إن القلب ملك الأعضاء وهو - أيضاً - سيدها ، ذلك لأنه أرقاها وأفضلها وله عند الله مكانة . فالقلب بما فيه من رحمة الفؤاد . سوف يُسأل عنه الإنسان - لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) .

ونظر القلب هو نظر البصيرة . فبقدر إيمان المرء تكون قوة الإبصار الروحي - والشفافية - يقول الله عز وجل :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢) .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٤) .

المقصود بالصدر في الآيتين : القلب . . وإن كان الخطاب لأصحاب القلوب الميتة التي خلت من نور الهدى . . ويقول رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها » (٥) .

ويقول ﷺ :

« نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب » (٦) .

وقال حكيم : « إن القلب إذا قسى لا يبالى إذا أساء » .

(٢) الحج : ٤٦ .

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٤) القصص : ٦٩ .

(٣) آل عمران : ٢٩ .

(٥) معجم الحديث المفهرس ج ١ ص ٤٠١ .

(٦) كنز العمال : ج ١ رقم ٣٦٣٣ .

كيف تموت القلوب ؟

حياة القلب علمٌ فاغتنمه وموت القلب جهل فاجتنبه
وخير الزاد تقوى فادخره كفاك الوعظ هذا فاتبعه

الشیطان یسیطر علی القلب

إن سيطرة الشیطان علی قلب الإنسان هو أولى مراحل موت هذا القلب .
لأن الشیطان یدخل القلب من مداخل الضعف كالشهوة والطبع والغفلة . ثم
یحركه حسب هواه ویأمره بكل الرذائل — یقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ
يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) .

وذلك نجد أن أول مظاهر سيطرة الشیطان علی قلب الإنسان هي :

* النسيان :

فجأة يتخطى القلب لا یدری ما صنع أمس ، بل قد ينسى أهم أمور حياته ثم
یتطور الأمر بأن ينسى ذكر الله . وينسى أداء الفرائض وبذلك يعيش لا یدری ما
له من حقوق وما علیه من واجبات . . . وفى ذلك یقول الحق سبحانه :

﴿ اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

(١) النور : ٢١ .

(٢) المجادلة : ٦٨ .

(٣) الانعام : ٦٨ .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (١) .

والنسيان مرض لعين يسببه الشيطان . وعلاجه إنما يكون بذكر الله — ومدافعة أهواء الشيطان عن القلب — لأن القلب الذاكر لا مكان للشيطان فيه .

* الخوف من الفقر :

لا شك أن الخوف من رزق غد ضعف فى إيمان القلب . لأن الله أخبر الخلق أنه خلقهم وضمن لهم رزقهم . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٢) .

والذين يخافون الفقر يعيشون فى اضطراب نفسى يدفعهم إلى البحث عن المال ولو كان بطريق الحرام . لأنه يخاف من الفقر . مع أن الله سبحانه طمأن الإنسان على أولاده الضعفاء الذين يتخذهم الإنسان حجة فى نهبه للأوراق المحرمة . . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ (٣) .

يأتى الشيطان للإنسان عندما يريد القلب أن يتصدق أو يكرم ضيفاً أو يتبرع لمشروع خير فيقول — الشيطان — له لا تدفع حتى لا يذهب مالك وتصبح فقيراً مثل فلان وفلان — لا تتعاون فماذا يعود عليك ؟ وهكذا — حتى يسيطر على قلب من باب الفقر . . . يقول ربنا سبحانه :

(١) يوسف : ٤٢ .

(٢) هود : ٦ .

(٣) النساء : ٩ .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَضَاءً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

... يا قلوب الغافلين ! انتبهوا لمكايد الشياطين حتى لا تموت قلوبكم فتعيشوا في الدنيا أغبياء .

* تمنى الخلد :

الإنسان يحب الدنيا . ويحب المال والقلب يعشق الجمال .. وللشيطان إلى القلب من ذلك مدخلاً ليسيطر عليه ويجعله غافلاً حتى يموت فيصبح علقة تضخ الدم فقط — لا شعور ولا نور ولا رحمة . كل همه أن ينسى الموت ويمنى نفسه بالخلد الأبدى — وتمنى الخلد نزعة لدى الإنسان يستغلها الشيطان . من بداية خلق آدم إلى الآن .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ (٢)

... وأكل آدم من الشجرة وعصى الله . ولكن الله تاب عليه ورحمه ومازال تمنى القلب للخلود مدخل للشيطان يتزغ منه ليشغل الإنسان عن ذكر ربه — أفق أيها الإنسان ولا يضحك عليك الشيطان ... فقد ذكرنا الله بأن الدنيا دار فناء يقول عز وجل :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٣)

ويكفي موعظة للقلوب في عدم نسيانها الفناء أن الله عزى نبيه ﷺ في نفسه وهو على وجه الدنيا — تذكيراً له وموعظة لمن بعده — حتى تغلق باب الخلد في قلوبنا ونهزم شيطاننا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّنْ فِهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (٤)

(١) البقرة : ٢٦٨ .

(٢) طه : ١٢٠ .

(٣) الرحمن : ٢٦ — ٢٧ .

(٤) الأنبياء : ٣٤ .

القلب وسلطان الهوى

إن من عوامل موت القلوب أن تترك لهواك العنان يسيطر على قلبك فيجنح بك هنا وهناك ويردك في المهلكات فكن حذراً من فوضى التصرفات واعلم أنك مُحاسب على أفعالك . . وتأمل قول المولى عز وجل :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤١) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾ (١) . والمقصود بالنفس هنا القلب - لأن من خاف ربه وَجَلَ قلبه وخشعت جوارحه وظهر نور الإيمان في وجهه . وأنزل الله عليه سكينته و شمله برحمته وأسكنه جنته .

* أما الهوى - فلنما سُمي بذلك لأنه يهوى بالقلب في الدنيا إلى منحدرات الرذائل وفي الآخرة إلى سحيق جهنم - والهوى كمين لا يؤمن فاحذر هواك . فإنه يحثك على نيل الشهوات عاجلاً وإن كان يسبب أعظم الآلام والندم آجلاً . . مع أن إطاعة الهوى لها في الدنيا عواقب قبل عواقب الآخرة . . . والهوى يعمى القلوب عن المروءة والدين والرأى الرشيد .

أخى - صاحب القلب السليم - اعلم أنك لم تخلق للهوى - إنما هيأك الله لأمر عظيم - سعادة طاعته - ولن تنال ذلك إلا إذا خالف قلبك هواك ! واستمع إلى قول الشاعر :

قد هيَّؤوك لأمرٍ لو فطنت له فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ

فاختر لنفسك أيها المؤمن أترضى أن تكون مع الحيوانات ترتع أم على طريق

(١) التارعات : ٤٠ - ٤١ .

الأولياء تسعد . . لأن الشيطان إذا وجد القلب إلى الهوى يميل سارع إليه يشجعه وللشر يدفعه وإلى الرذائل يسوقه حتى يمرض القلب . فيميل ويطمع لكل رذيلة .

﴿ فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (١) .

وطالما أن الهوى يمرض — فإن المرض بداية موت القلوب الغافلة . فاحذر أن تجعل هواك قائدك فينزل بك إلى دركات السافلين . . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ (٢) وقد حذر الله عز وجل في أكثر من موضع في آيات الذكر الحكيم من اتباع الهوى أو مصاحبة أهل الهوى . . . يقول عز وجل :

﴿ وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٣) .

وقد أوضح رسول الله ﷺ أن اتباع الهوى من المهلكات فقال :

« ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات : فأما المنجيات فتقوى الله عز وجل في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد في الغنى والفقر . وأما المهلكات فهوى متبع وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٤) .

ويقول أحد الحكماء :

« إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك ومخالفته » .

(١) الأحزاب : ٣٢ .

(٢) الأعراف : ١٧٦ .

(٣) الكهف : ٢٨ .

(٤) رواه البزار وأبو نعيم في الحلية .

وقال بشر الحافى : رحمه الله تعالى :

« البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك إياه » .

وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد أى الجهاد
أفضل؟ قال : جهاد هواك .

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « جهاد النفس والهوى أصل جهاد
الكفار والمنافقين » .

الكبر يقتل القلوب

الكبر : معناه بطر نعم الله والتعالى على أوامره . . . وقد يكون الكبر على المخلوق . بأن يفخر الإنسان على غيره . ويستعمل « الأنا » التي استعملها إبليس لعنة الله عليه وأخرجته من الجنة إلى النار . ومن رحمة الله إلى سخطه وغضبه . . . وقد هدم الإسلام بمحول التقوى ما كان الناس يتفاخرون به على بعضهم ويتعالون فقال الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

ويخرج رسول الله ﷺ من داره فيجد بعض الناس قد ارتفعت أصواتهم يتفاخرون فيما بينهم ويتعالى بعضهم على بعض . هذا يقول أنا من بنى فلان . وهذا يقول : وأنا من بنى فلان . . فقال لهم رسول الله ﷺ :

« كلكم لأدم وآدم من تراب » ثم يذكرهم بقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ والكبر مرض لعين يصيب القلوب فيهلكها . ويكفى الكبر لعنة أنه أكبر باب في القلب يؤدي إلى الكفر . . وهل كفر إبليس إلا به ؟ وهل كفر فرعون إلا به ؟ وهل كفر النمرود إلا به ؟ وهل كفر قارون إلا به ؟ . . . وما زال إبليس - لعنه الله - يسعى في الناس حتى يزرع في قلوبهم الإعجاب بالنفس ثم ينتقل بهم إلى الكبر - فإذا سكن الكبر القلب . فاعلم أن الأمر أصبح خطراً . بل كان الكفر إلى القلب أسرع . ويكفى أن الكبر والسجود لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن . ذلك لأن الكبر من مضمونه الإباء

(١) الحجرات : ١٣ .

والرفض ، والبطر . أما السجود فلا يكون إلا بالتواضع وخشوع القلب لأنه لا معنى للسجود إن لم يسجد القلب قبل سجود الجوارح . . . وقد اجتمع التواضع بمعنى الدعاء والخشوع فى مقابل الرفض الذى هو الكبر المؤدى إلى الكفر فى قوله تعالى :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل :

﴿ فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢) .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٣) .

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٤) .

* * *

(١) غافر : ٦٠ .

(٢) النحل : ٢٩ .

(٣) الزمر : ٦٠ .

(٤) الزمر : ٧٢ .

قلوب المتكبرين

إنها قلوب حادت عن الطريق المستقيم وأنساها الشيطان ذكر الله — ثم دفعها إلى ارتكاب المعاصي ثم مناهها البقاء والخلد . . ثم أدخل إليها العُجب ثم أورثها الكبر . . وهذه القلوب بذلك قد سقطت في الحضيض وأصبحت من الخاسرين . . وأصحابها يعيشون على عيونهم غشاوة وعلى قلوبهم ران يمنهم من رؤية الحق أو مشاهدة الحقيقة . . ويظلون هكذا حتى يأتيهم — ملك الموت — هازم اللذات وقابض الأرواح . وقتها فقط يُصابوا بالذل والهوان ويدركون سوء المصير . لقد فات الأوان . . وجاء الوقت الذى تصير فيه أجسادهم تراباً . وتهوى أرواحهم فى سحيق جهنم .

* القلوب التي لا تدعن لأوامر الله . . وتسعى بالفساد فى أرض الله ، ولا تتفكر فى آياته ولا تتدبر فى نعمائه قلوب لا رحمة فيها . مغرورة بشهواتها، مصروقة عن آيات الله . . وقد ذم الله عز وجل هذه القلوب فى قوله تعالى:

﴿ سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) إنها قلوب طبع الله عليها . لم تعد ترى نور الهداية فهى متكبرة متجبرة عنيدة خائبة . . يقول الله عز وجل فيها :

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٢) .

ويقول عز وجل :

(١) الاعراف : ١٤٦ .

(٢) غافر : ٣٥ .

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (١) .

وقوله عز وجل :

﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ (٢) .

وهذا رسول الله ﷺ يحذر القلوب وينذر النفوس من العواقب الوخيمة للكبر - فيقول ﷺ :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر . ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل إيمان » (٣) . . وانظر معي أخى القارئ - إلى مصير المتكبرين . . يقول الله عز وجل في الحديث القدسي الجليل - قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي » (٤) .

وقال ﷺ :

« تحاجت الجنة والنار . فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس . وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشياء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أحذب بك من أشياء ولكل منكما ملؤها » (٥) .

ويقول ﷺ :

« إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً . وإن أبغضكم

(١) إبراهيم : ١٥ .

(٢) الفرقان : ٢١ .

(٣) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٤) أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٥) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون . فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون » (١) . فالحذر كل الحذر من أن يدخل الكبر إلى القلوب . فقد كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الكبر فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء » (٢) .

وقال محمد بن الحسين بن على : « ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر . . وسئل سليمان عليه السلام عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر . . وما دام الكبر يُغضب الله ويهلك القلوب . فإن التواضع يرضى الله ويحيى القلوب .

ويقول رسول الله ﷺ :

« التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » (٣) . . ويقول — أيضاً — ﷺ :

« أربع لا يعطيهم الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع والزهد في الدنيا » (٤) .

وكلما تواضع القلب حل فيه نور الإيمان وطرد منه وسوسة الشيطان . ورفع الله شأن صاحبه وبارك في أعماله .

(١) أخرجه أحمد .

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي بلفظ مختلف .

(٣) الحديث ورد في الترغيب والترهيب .

(٤) أخرجه الطبراني والحاكم .

الرياءُ مرضٌ فتاك

إن الرياء مرض يتسلل إلى نفوس الضعفاء يميل بهم إلى حب المظاهر وطلب الفخر على الناس والتباهى بصالح الأعمال . وذلك لا شك يُفسد نية القلب ويبطل ثواب العبادة .

والرياء هو : طلب ثناء الناس وحبٍ مديحهم بإرائتهم الخصال الحميدة والمظاهر الطيبة . وفي هذه الحالة لا تكون العبادة خالصة لوجه الله والله عز وجل يقول :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٢).

وكان رسول الله ﷺ جالساً يوماً فقال له رجل : يا رسول الله أقف الموقف أبتغى به الله عز وجل وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية التى سبق ذكرها الآن .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : تعوذوا بالله من جُبُّ الحزن . قالوا: يا رسول الله وما جُبُّ الحزن ؟ قال : وادٍ فى جهنم تعوذ منه جهنم كل يوم أربعمئة مرة . قيل : يا رسول الله . ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم (٣) .

(١) البينة : ٥ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

(٣) رواه ابن ماجه .

وكم من أناس ماتت قلوبهم بحب الرياء وغلب علي عبادتهم المظاهر
وأفئدتهم هواء والرياء يعلم الكذب والكذب يدفع إلى النفاق .

* وعن شداد بن أوس . أنه بكى فقليل له : ما يبكيك ؟

شيئاً سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول : « فذكرته فأبكاني . سمعت رسول
الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية » قال : قلت : يا
رسول الله : أتشرك أمتك من بعدك قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً
ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثناً ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح
أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » .

وإذا كان الرياء في القلوب يدفع إلى ثناء الدنيا ومديح أهلها فهو بذلك
يجلب على صاحبه حب الدنيا . وقد قال رسول الله ﷺ :
« حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة » (١) .

أخا الإسلام — إياك إياك والرياء . فتوب الرياء مَنْ اكتسى به كأنه عارٍ .
والرياء محقة للبركة مضیعة للثواب .
* الرياء سلوك مذموم :

وإذا كان الرياء يدخل إلى القلوب فيصيبها بمرض الشرك الأصغر ويخرجها
من التوحيد الخالص . فإنه بذلك يقتل القلوب . وينعكس ذلك على سلوك
العبد . فيصبح مذمومًا في نيته وسلوكه . وقد ذم الله عز وجل أهل الرياء فقال :
﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦)
وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ (٢) .

(١) رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري .

(٢) الماعون : ٤ - ٧ .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورُ ﴾ (١) .

وقد سأل رجلُ النبي ﷺ : فقال : يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال : « أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » .

وقال ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء » (٢) .

وإذا كان الرياء يفتك بالقلوب في الدنيا فإن صاحبه يأتي يوم القيامة مع ما معه من عمل - فهو مفلس يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟ » .

وقال ﷺ : يقول الله عز وجل : « من عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برى وأنا أغني الأغنياء عن الشرك » (٣) .

ويروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رأى شاباً يمشى وقد طأطأ رأسه . فقال له : ارفع رأسك يا هذا إنما الخشوع في القلوب .

وقد ذكر الإمام على - كرم الله وجهه - أن للمرائى ثلاث علامات :

« يكسل إذا كان وحده . وينشط إذا كان في الناس . ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم » .

ويسأل رجلُ الإمام سعيد بن المسيب فيقول :

إن أحدنا يصطنع المعروف يُحب أن يُحمد ويؤجر ، فقال له : ألحِب أن تمقت ؟ قال : لا . قال : إذا عملت لله عملاً فأخلصه .

فإياك والرياء فإنه مرض فتاك .

(١) فاطر : ١٠ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب .

(٣) أخرجه مالك ، ومسلم مع تقديم وتأخير .

الحسدُ يأكل القلوب

من أشد وأفظع الأمراض التي تُصيب القلوب فتمرضها وتسيطر عليها فتقتلها
«الحسد» .

وقد كثر تعوذ النبي ﷺ من الحسد حتى في دعاء الصباح والمساء . والذي
جاء فيه : « رب أعوذ بك من العجز والكسل والحقد والحسد وغلبة الدين وقهر
الرجال » ... وأكثر من ذلك أنه ﷺ كان يعلم أهله التعوذ من الحسد والتحصن
ضد عين الحسود . . وكان النبي ﷺ يتعوذ بالكلمات التامات حتى نزلت
سورة « الفلق » وسور « الناس » فأصبح يتعوذ بها صباحًا ومساءً :

بسم الله الرحمن الرحيم :
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ
شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم :
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَفَاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ (١) .
واعلم أن الحسد مرضٌ لعين يتسرب إلى صدور ضعاف النفوس . فإذا تمكن
منها قل إيمانها وسيطر عليها حتى أنساها ذكر الله وشغلها بنعم الله علي الغير
التي يتمنى الحسود أن تزول عن صاحبها .

وقد مقت رسول الله ﷺ الحقد والحسد والبخل . عن أبي هريرة - رضى
الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث منجيات وثلاث مهلكات . فأما المنجيات فتقوى الله في السر
والعلانية . والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد في الغنى والفقر . وأما
المهلكات فهي متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه وهو أشدهن » .
وقال ﷺ :

« إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .
وعن الزبير - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال :

(١) سورة الناس

« دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » (١) .

أخى القارئ تعالى معى لتعرف الأثر السيئ للحسد على القلب . وأن أهل الحسد أعداء لنعم الله وفضله . . يروى الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « إن لنعم الله تعالى أعداء . قيل من أولئك قال: الذين يحسدون على ما آتاهم من فضله » .

إن القلب الحسود قلب مريض بل هو قلب ميت لا يعترف بفضل الله ولا يقر بنعمته . بل هو غير مؤمن بالقضاء والقدر . . إن لله الحكمة البالغة فى إعطاء العباد النعم - سواء نعمة الدين أونعمة المال أو نعمة الصحة . يقول الشاعر :

لا مات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة فإنما الكامل من يحسد

إن المؤمن الحقيقى هو الذى يُجاهد نفسه فإن دعت له للحسد استغفر الله واستعاذ به من الشيطان الرجيم وأرجع الأمر إلى الله العلى القدير . . . وقد تدفك نفسك إلى رفض الدواء المر ولكن هو سبب للشفاء الحلو . فجاهد نفسك واضرب على غرورها وحارب حسدها للغير واعمل ضد هواك فأحب للناس ما تُحب لنفسك وأقر أن كل شىء بقضاء وقدر . . وأنك لا تدري الخير لأنه لا يعلمه إلا الله خالق النفوس .

وروى عن الحسن - رضى الله عنه - مرفوعاً عن النبي ﷺ أنه قال :
« ثلاثة لا يخلو منهم المؤمن وله منهم مخرج فمخرجه من الحسد ألا يبغى » .
وعلى ذلك فالحاسد الذى لا يظهر حسده . أفضل من الحاسد الباغى الذى يتمنى لغيره الزوال فى نعمته ويفرح إن وقع به ما يُسيئه . . وهناك حسد محمود كما جاء عن رسول الله ﷺ :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى سبيل الله ورجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار » .
والحسن المحمود إنما هو تنافس فى الخير .

(١) أخرجه الترمذى ٦٦٤/٤ كتاب صفة القيامة وأحمد فى المسند ١/١٦٧ .

حُبُّ الدُّنْيَا يُمِيتُ الْقُلُوبَ

الدنيا متاع وخير متاعها زوجة صالحة ومال من حلال ينفق على الفقراء وفي سبيل الله. إن الدنيا سوق نُصب ثم انفض ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر - وهي كسراب تلمع أمام عيون محبيها - يقول الشاعر :

تأمل في الوجود بعين فـكـرٍ
تري الدنيا الدنيئة كالحيا لـ

هي الدنيا تقول بـلـءٍ فيها
حذارى حذارى من بطشى وفتكى
فلا يغركم منى ابتسام
فقولى مضحك والفعل مبكى

والذين يفضلوا الدنيا على الآخرة - إنما هم الأخسرون أعمالاً . .
﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ .

وهذا الرسول البشير ﷺ يخبرنا عن مساوئ حب الدنيا فيقول :

« الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ اللَّهُ مِنْهَا » .

وفي رواية بزيادة : « إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ وَمَا وَالَاهُ وَعَالَمٌ مُتَعَلِّمٌ » (١) .

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه .

ويقول ﷺ :

« مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَبَ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَبَ بِدُنْيَاهُ فَأَثَرُوا مَا بَقِيَ عَلَى مَا يَفْنَى » (١) .

وإذا كانت الدنيا لهو للعقول وعفلة للقلوب . وظلام للأفئدة فكيف يركن إليها مؤمن عاقل وهي دار الغرور التي ما أقبلت إلا وأدبرت وما أينعت إلا ونعت وما أضحكت إلا وأبكت . لا أمان له ولا قرار فيها ، رائلة لا محالة . فكيف بالله يتأمل فيها المتأملون أو يطمئن إليها صاحب قلب سليم ؟ !

يقول رسول الله ﷺ :

« إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْزَلٍ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ ، وَعَلَيْهَا يُعَادَى مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ ، وَعَلَيْهَا يُحْسَدُ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ ، وَلَهَا يَسْعَى مَنْ لَا يَقِينَ لَهُ » (٢) .

حزين أنت يا مَنْ جعلت من الدنيا لك مخلداً وجعلت من شهواتها ملداً وركنت إليها حتى مرت بك الأيام وأنت لا تدري ما حولك ولا تعرف للزهد طريقاً ولا للإخلاص مسلكاً ، ثم ذهب بك الأجل وجاءك ملك الموت . ظهر منك الندم ولكنه الآن لا يفيد .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ۚ ﴾ (٣)

يقول رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه أحمد والبخاري والطبراني والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب .

(٣) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ .

« مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمَّهُ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَالزَّمَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَرْبَعَ خَصَالٍ: هَمًّا لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَدًا ، وَمَشْغَلًا لَا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَدًا ، وَفَقْرًا لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَدًا ، وَأَمَلًا لَا يَبْلُغُ مَتْنَاهُ أَبَدًا » (١) .

وإذا كنت - أخا الإسلام - تريد أن تعرف كيف تتعامل مع الدنيا - فإنني أقدم لك هذه النصيحة التي بها يجلو قلبك وترقى روحك ويشف فؤادك . . . وهي نصيحة غالية يقدمها لنا رسول الله ﷺ .

عن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال :
« هل منكم مَنْ يريد أن يُذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرًا . ألا أنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك . وَمَنْ زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علمًا بغير تعلم . وهدى بغير هداية ، ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل . ولا المحبة إلا باتباع الهوى . ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز . لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقًا » (٢) .

أخى المسلم . . تأمل قول الشاعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدارة قريبة العرس من الماتم

* والآن مع الإمام على - كرم الله وجهه - وهو يخطب خطبة عصماء يبين فيها مزبلة الدنيا :

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب .

يقول الإمام :

« اعلّموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالقدر موصوفة ، وكل ما فيها إلي نازلها وهي بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يُسلم من شرها مَنْ نزالها ، بينما أهلها منها فى رخاء وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور ، أحوال مختلفة وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها . وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور . . . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل ولا مَنْ مضى ممن كان أطول منكم أعماراً وأشد منكم بطشاً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً . فأصبحت أصواتهم هامة خامدة من بعد طول تغلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرور والنمارق الممهدة . الصخور والآجار المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة . فمحلها مقرب وساكنها مغرب بين أهل عمارة موحشين ، وأهل محلة متشاغلين لا مستأنسين بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار » (١) .

إن أفضل الناس من جعل من دنياه سبيلاً لأخراه فلا يبيع آخرته بدنياه فيكون غيباً ولا آخرته بدنياه غيره فيكون أحمقاً . . ويقول رسول الله ﷺ « إن الدنيا ضُرِبَتْ مثلاً لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قزحه وملحه إلام يصير » (٢) .

يقول الشاعر :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوم أن ظلك زائل

(١) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه الطبراني وابن حبان .

معنى الزهد فى الدنيا

قد يفهم البعض أننا ننادى بالعزوف عن الدنيا حتى تحبى قلوبنا . . ولكن هذا فهم خاطئ . فلا رهبانية فى الإسلام . . إنما المقصود ألا تكون الدنيا بزيتها وزخارفها وشهواتها هى المسيطرة على القلب تجعله يسير حسب هواها ووفقاً لأطماع النفس ورغبات الشيطان . . بل يكون القلب هو السيد الذى يُحرك الجوارح لطاعة الله وللحد من شهوات الدنيا وكبح جماح النفس ورفض هوى الشيطان . . وباختصار أن يعمل القلب لدنياء ودينه بالاعتدال لأن الله أمرنا بذلك . . يقول الله عز وجل :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

ومعروف لدينا . . قصة الثلاثة الذين أتوا إلى النبی ﷺ وقد سمعوا بنزول قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ فقالوا : يا رسول الله : نحن نتقي الله . فقال أحدهم إنى أصوم الدهر ولا أفطر . وقال الثانى : أما أنا فأصلى الليل ولا أستريح . وقال الثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء . . . فلما سمع النبی ﷺ منهم ذلك غضب وقال لهم : أما أنى أقربكم إلى الله وأتقاكم له . وأصوم وأفطر ، وأصلى وأستريح ، وأتزوج النساء . وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني . . لا رهبانية فى الإسلام » . . وبذلك نغلق الباب على المتشددین دُعاة الغلو فى الدين . . ونأخذ بيد المفرطين إلى طريق الاعتدال حتى يعيش القلب بين الأمل والرجاء فى حب واعتدال .

(١) القصص : ٧٧ .

ويقول رسول الله ﷺ :

« أوغل في هذا الدين برفق فلن يشاد الدين أحداً إلا غلبه » .

فمرحباً بالدنيا التي تُعين على طاعة الله . وقد قال أمير الشعراء أحمد شوقي : « ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا »

ويقول في شعره :

بالعلم والمال بيني الناس مجدهم لا يُبنى مجدٌ على جهل وإقلال

ولم يكن النبي ﷺ عارفاً عن كل أمور الدنيا أو داعياً للرهبنة . . بل كان يهتم بملبسه ومجلسه ومعيشته . . فهو يلبس أنظف وأطهر وأجمل الثياب ويهتم بشعر رأسه ولحيته . . حتى أنه كان جالساً في يوم من الأيام ودخل عليه شاب منتور الشعر ملابسه رثة . فقال ﷺ لأصحابه : خذوا عني . . ثم رجع بعد قليل وقد نظم شعر رأسه ونظف ملابسه فاستقبله ﷺ وهو يبتسم . وقد أمرنا النبي الكريم صلوات الله عليه إذا دخلنا على نساءنا أن نكون في أجمل وأطيب هيئة من النظافة والنظام .

ويقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما « والله إنى لأتزين لزوجتي كما أحب أن تتزين لى » .

وقد ورد في الآثار أن بنى إسرائيل كانوا لا يهتمون بنظافتهم ولا بملابسهم واستعبدتهم المادة . فزنت نساؤهم .

وقد كان رسول الله ﷺ يضع بجوار سرير نومه : المشط والمرآة والسواك والطيب وماء الوضوء .

ويقول ﷺ :

« حُب إلى من دياكم ثلاث : النساء والطيب وقرعة عيني في الصلاة » (١) .

(١) أخرجه النسائي والحاكم .

واعلم - أخا الإسلام - أن طهارة القلب من شهوات الدنيا من المنجيات إذ تكون للعبد وقاية من عذاب يوم الدين - فقد ورد في الأخبار : « إن أعمال العبد تُناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه » (١) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« مَنْ طَلَب الدُّنْيَا حَلَالًا مَكَثَرًا مَفَاخِرًا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ . . وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتَعْفَافًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَصِيَانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » (٢) .

من هذا المنطلق تعرف أن حب الدنيا الذي يطغى على القلب بالشهوات وينسيه ذكر ربه بالملذات هو المذموم بل هو الذي يُمرض القلب ويميته أما الاعتدال فهو المطلوب . وليست الرهبة التي نسمع عنها لدى بعض الطرق ، فإن الإسلام أمر بتأديب النفس وتهذيبها - ولم يأمر بتعذيب النفس أو إيلاها .

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب « إحياء علوم الدين » :

« فهذه هي أعيان الدنيا . إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها . حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداينة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها » أ . هـ .

إن المجاهدة في الحياة أمرٌ مطلوب وتأديب النفس أمرٌ محمود - ولا بد من محاسبة النفس أولاً بأول .

(١) أخرجه الطبراني .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب .

الغيبةُ سُوسُ القلب

إنه مرض لعين حقير ذلك الذى يدخل إلى القلب عن طريق اللسان ألا وهو « الغيبة » فيخرب بها القلب . فتقلل فيه الإيمان وتورثه الحقد والحسران وتنسيه ذكر الرحمن . . إذن دخول الغيبة إلى القلب تتمكن منه شيئاً فشيئاً مثل فعل السوس فى العظام يقوضها حتى تصبح كالخطام .

وقد جعل الله عز وجل شروطاً لفلاح قلوب المؤمنين وهى التى جاءت فى صدر سورة المؤمنين ومنها قوله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ (١) .

والغيبة : هى كما عرفها رسول الله ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكرهه » قالوا : يا رسول الله وإن كان فيه ذلك . قال : « إن كان فيه فقد اغتبه وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

والغيبة قد تكون : باللفظ وبالعزم وبالقلم وبالتصريح وبالتلويح . . . بما يُسئ إلى الآخرين . . ولا شك أن أصحاب الغيبة أصحاب جهالة وقد أمر الله ﷻ أن يعرض عنهم . وذلك فى قوله تعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى :

(١) المؤمنون : ١ - ٤ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

﴿ فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

الا ترى — أخا الإسلام — أن الله عز وجل شبه الذين يغتابون إخوانهم بتشبيه فظيع مؤلم — كأنهم يأكلون لحومهم أمواتاً — يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)

إن الجالس مع المغتاب المستمع له . أو الساكت المعجب بالحديث شريك فى الاغتياب شأنه شأن المغتاب فإذا أن ينهى وإما أن يهجر المكان معلناً عدم رضاه على هذا . . يقول رسول الله ﷺ :

« المستمع أحد المغتابين » (٣) .

وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلاناً لتثوم . ثم طلبا أدمًا من رسول الله ﷺ : ليأكلا به الخبز . قال ﷺ : « قد ائتممتما » !! قالوا : ما تعلمه ؟ قال : « بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما » (٤) .

من هذا المنطلق نعلم أن الغيبة مرض يفتك بالقلب . لذا يجب أن يحتجب عنه المسلم . فلا يفعله ولا يسمعه ولا يُشارك فيه بالسكوت أو الرضا عليه بل المفروض أن ترتفع بأنفسنا فوق كل ذلك لنظهر قلوبنا . . . يقول رسول الله ﷺ :

(١) الأنعام : ٦٨ .

(٢) الحجرات : ١٢ .

(٣) أخرجه الطبرانى .

(٤) أخرجه أبو العباس الرغولى فى الادب وانظر كتاب إحياء علوم الدين جـ ٣ .

« من أذلَّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » (١) . إنه لحديث صريح فى إعزاز المؤمن وعدم كسر خاطره بل الأخذ بيده وتقوية قلبه بالحب والتعاون .

وقال أبو الدرداء - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ :

« من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » (٢) .

وجاء أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار » (٣) .

إن على المؤمن أن ينزه نفسه عن الغيبة ويطهر قلبه منها ليكون صاحب قلب حى . أما الذين ضاع منهم الوازع الدينى فقد ماتت قلوبهم .

* * *

(١) أخرجه الطبراني .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا .

(٣) أخرجه الطبراني .

حَيَاةُ الْغَافِلِينَ

الغافلون

خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم وأكرمه بالعقل . واستخلفه فى الأرض وأمره بإصلاحها وعمارتها . . يقول الحق سبحانه :
﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ (١) .

وأمر الله الإنسان بعبادته وجعل ذلك أكبر مهمة له فى الاستخلاف فى الأرض . وضمن له رزقه وسبب له الأسباب وأرسل له الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين . . يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴿ (٢) .

إذن الله خلق الإنسان ورعاه وحماه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . . ثم إذا أمره بطاعته عصاه . . وإذا أمره بذكره نساه . ثم يشكو العبد لربه مما هو فيه من ضيق وعسر فى الحياة . . وهو لا يدرى أن سبب كل ذلك إعراضه عن ذكر الله .

يقول الله عز وجل فى الغافلين عن ذكره سبحانه :
﴿ وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤)
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) ﴿ (١) .

(١) فاطر : ٣٩ .

(٢) الذاريات : ٥٧ - ٥٨ .

(٣) طه : ١٢٤ - ١٢٦ .

أما الذين سكن الإيمان قلوبهم وعمرت أفئدتهم بذكر خالقهم فعاشوا فى الدنيا صالحين . . وهم فى الآخرة من الفائزين . فإن الله عز وجل يقول فيهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّا بَ (٢٩) ﴿ (١) .

الغافلون يعيشون عيشة الأنعام يأكلون ويشربون ويلعبون ويرتعون ويلههم الأمل لا يستعملون نعم الله فى مواضعها . . فهم لهم آذان ولكنهم يعطلونها ، ولهم أعين ولكنهم ينظرون بها إلى المحرمات ، ولهم أجساد على الحرام يغذونها ، أو لا يبالون من أى مصدر كان غذاؤهم أو كسوتهم . . إنهم فئة يقضون حياتهم أيام تمر عليهم لا قيمة لها بل لا قيمة لحياتهم . . وقد تحدث القرآن الكريم عن هؤلاء يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

* قلوب الغافلين :

أما قلوب هذه الفئة الضالة الغافلة التى لا ترى بأعينها نعم الله ولا تسمع بأذنانها آيات الله ، ولا تقبل بأفئدتها على ذكر الله . . فإنها فئة ماتت قلوبها وختم الله عليها فأصبحت حياتهم خسران . . ضلوا وأضلوا تراهم أحياء يمشون على الأرض . ولكن حياتهم تستوى مع مَنْ هُم فى القبور . . يقول الله عز وجل فيهم :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

(١) الرعد : ٢٨ - ٢٩ .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) النحل : ١٠٨ .

فهل ترضى - أخى القارئ - أن تكون من هؤلاء - صاحب بصر أعمى
وسمع مُعطل وقلب خرب - لا تعرف للإيمان لذة ولا ترى نور التقوي ولا
تسعد برضا الله . . . انتبه فإن للدنيا مغرباتها وللحياة شهواتها .
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ
الْغُرُورُ ﴾ (١) .

يا أصحاب القلوب الغافلة أفيقوا قبل فوات الأوان . واطرودا الدنيا من
قلوبكم . وخذوا منها حظكم الذى يعينكم على طاعة الله . ولا تنسوا فضل
الله . بل أكثروا من ذكره . . فالله يقول لكم :
﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) قاطر : ٥ .

(٢) الأعراف : ١٠٥ .

حياة اللهو واللعب

هناك من الناس من اتخذ إلهه هواه وسيده شيطانه — ليس للحياة عنده قيمة وليس للمبادئ أو القيم لديه حرمة أو كرامة . . وهم بذلك ليسوا مجانين ولا أصحاب حالات (مرضية عضوية أو مس من الشيطان) إنما هو العناد وإنكار النعمة والانغماس فى تيار الطمع والخضوع لتزعة الجشع . . . وعندما يتقدم إنسان لينصحه . أو إلى طريق الخير يرشدهم . أو بنعم الله يذكرهم — تراهم من النصيح يستهزئون وبغيرهم يسخرون — وقد أعمتهم الغفلة باتخاذهم الدنيا لهواً ولعباً . وسوف يحاسبهم الله تعالى على ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) .

وقد أراح الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون ويستهزئون فقال الله لنبيه ﷺ :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۚ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى — فيهم أيضاً :

﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٣) .

(١) التوبة : ٦٥ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) الزخرف : ٨٣ .

إن فئة من العباد رتبوا حياتهم على نظام أدمنوه فهم ينامون النهار كُسالى لا يتحركون . . وبالليل ينام الناس وهم يسهرون . . مع الراقصات وفى أحضان الغانيات . . بين القيل والقال . . بين صرخات ضحك المجنون - وشرب الخمر . . إنها الليالى الحمراء التى يملؤها الغناء - وتمضى بهم الأيام وتسرع بهم الليالى . . وفجأة يأتى ملك الموت فماذا يقولون ؟

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (١) .

ويل لمن تنسيهم الدنيا آخرتهم . . وويل لمن يجرفهم حب الشهوات والانغماس فى السهرات عن السجود لرب الأرض والسماوات . . ويل للالهية قلوبهم . . ويل للذين سخروا أنفسهم لهوى الشيطان . . فأنساهم ذكر الرحمن : ﴿ قَوْلٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) (٢) .

وقد أوضح لنا الرسول الكريم ﷺ أن الدنيا دانية حقيرة تستعبد أصحاب الأهواء وتلعب بعقول السفهاء . . يقول ﷺ لأصحابه :

« أتدرون مَنْ الأحمق ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : مَنْ باع آخرته بدنياه . قال ﷺ : أتدرون مَنْ الأحمق منه ؟ ! قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « مَنْ باع آخرته بدنياه غيره » .

وانظر إلى قول الشاعر :

(١) المؤمنون : ٩٩ .

(٢) الطور : ١١ - ١٦ .

يا أيها الغافل جد الرحيل وأنت في لهوٍ وزاد قليل
لو كنت تدري ما تلاقى غداً لذبت من فرط البكا والعيول
فاخلص التوبة تحظى بها فما بقى في العمر إلا القليل
ولانتم إن كنت ذا غبطة فإن قدامك نومًا طويل

ويقول شاعر آخر يخاطب أهل الغفلة :

يا غادياً في غفلة ورائحاً إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً يستنطق الله به الجوارحا
واعجباً منك وأنت مبصرٌ كيف تجتنب الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ في غد صحيفة قد حوت الفضائحا
وكيف ترضى أن تكون خاسراً يوم يفوز من يكون رابحاً
فاعمل لميزانك خيراً فعمسى يكون في يوم الحساب راجحاً

ما أعظم النصيح الإلهي والإرشاد الرباني - الذي ينبهنا من غفلات الدنيا .
فإليك أجمل القول وأبلغ النصيح . . ما جاء في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) .

(١) الحديد : ١٦ .

الغافلون وأم الكبائر

ما وجدت أمراً خطيراً على البشرية كالخمر - التى هى أم الكبائر كما سماها الرسول الكريم ﷺ حيث قال : « الخمر أم الكبائر » .. ذلك لأنها تُفسد العقول وتُمتيت القلوب وتهلك الأبدان وتدمر الاقتصاد ... وهل يرضى بالخمر وآثارها التى ذكرناها الآن إلا الغافلون ... الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا فخرسوا دنياهم وآخرتهم - عاشوا فى الدنيا أذلاء وبعثون يوم القيامة تعساء .. إلا مَنْ تاب إلى ربه وأتاب وهو فى دنياه .. فإن الله يصلح شأنه .. فإن تاب وعمل صالحاً فإنه يبدل سيئاته حسنات .. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١) .

وتعالى معى - أخى القارئ - لنرى فى هذه القصة التى حدثت فى بنى إسرائيل .. ما يصدق عليها : « إن الخمر أم الكبائر » كما قال النبى ﷺ ... أما القصة فقد كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يسير يومياً من منزله إلى صومعته التى يتعبد فيها .. و كان له أعداء وحُقَّاد .. فقالوا لامرأة غانية . نريدك أن توقعى هذا الشيخ فى كبائر الدنيا .. وسول لها الشيطان فعلتها وبدأت تدبر المكيدة للشيخ النقى .. وكان منزلها فى طريق الشيخ الذى يمر منه كل يوم إلى صومعته للعبادة .. وبينما هو يسير لحقت به ونادت عليه أيها الشيخ أغثنى .. قال لها : ما بك ؟ قالت : تعالى معى فإن فى دارى ناراً سوف تلتهم متاعى فأرجو أن تساعدنى فى إطفائها .. فأسرع معها الشيخ إلى

(١) الفرقان : ٧٠ .

داخل الدار فأسرعت هى وأغلقت الأبواب . ولم يكن فى الدار نار . . ثم قالت للشيخ : اسمع أمامك، الآن . . طفل رضيع وهو ولدى من الزنا . . وأمامك رجاجة خمر . . وها أنا أمامك عارية . . فلما أن تقتل هذا الطفل ولما أن تشرب الخمر ولما أن تزنى بى . . ولم يجد الشيخ مفراً . . فصمت ثم قرر أن أخف هذه المصائب هى رجاجة الخمر . . فشرب الخمر فلعبت برأسه فزنى بالفاجرة ثم قتل الطفل . . كل هذا وهو سكران . . حقاً إن الخمر هى أم الكبائر . . ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الخمر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ :

« كل مسكر حرام من شرب الخمر فى الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها فى الآخرة » (٢) .

وجاء فى صحيح مسلم : « لعن رسول الله ﷺ الخمر وشاربها وساقبها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » .

وجاء - أيضاً - فى صحيح مسلم - عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال :

قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى بعثنى رحمة للعالمين وهدى للعالمين وأمرنى ربى عز وجل بمحق المعازف والمزامير والأوثان والصُّلب وأمر الجاهلية - وحلف ربى عز وجل : بعزتى لا يشرب عبد من عبيدى جرعة من خمر إلا سقيته من الصديد مثلها ولا يتركها من مخافتى إلا سقيته من حياض القدس » .

* * *

(١) المائدة : ٩٠ .

(٢) أخرجه البخارى ١٠ / ٣٠ برقم (٥٥٧٥)، ومسلم ٣ / ١٥٨٧ .

المخدرات مسكرات

لقد حاول أصحاب القلوب المريضة والأنفس الضعيفة التحايل على شرع الله عز وجل وذلك بإيهام بعض الناس أن المخدرات لا تدخل فى مجال التحريم . وأن لهذه المخدرات فوائد عظيمة فهى منبهة ومنشطة ثم تجرؤوا فأطلقوا على بعض الخمر مسميات عجيبة حتى يغتر بذلك الجهلاء . ويتناولونها تحت اسم غير اسم الخمر ويزعمون أنها ليست بحرام . يقول رسول الله ﷺ :

« يشرب أناسٌ من أمتى الخمر يسمونها بأسماء غير اسمها » (١) . .

وعن أبى موسى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال :

« ثلاثة لا يدخلون الجنة ، مدمن خمر ، وقاطع رحم ، ومصدق بالسحر » (٢) .

وقيل لعدى بن حاتم الطائى : مالك لا تشرب الخمر ؟ قال : لا أشرب ما يُفسد عقلى . . . وقيل له ما لك لا تشرب النبيذ ؟ قال : معاذ الله أن أصبح حكيم قومى وأمسى سفيههم .

ويقول فضيلة الإمام الشيخ / محمد سيد طنطاوى : « إن عشرات الفتاوى بدار الإفتاء أجمعت على أن المخدرات أشد حرمة من الخمر وذلك لأنها المدمرة على صحة الإنسان وعقله وماله وعلى الاقتصاد القومى . . وقال : إن العلماء أفتوا بأن مجرد النطق بتحليل المخدرات كفر » (٣) .

(١) أخرجه أبو داود فى سننه وابن ماجه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) جريدة الأخبار الصادرة الأربعاء ٢٩ يونية ١٩٨٨ م .

وقال الدميرى فى شرح المنهاج :

« والصواب تحريم بيع الأفيون والتجارة فيه لأنه مسكر مخدر مفسد العقول والأبدان والأديان » .

وقد روى البيهقى عن النبى ﷺ أنه قال :

« أول ما خلق الله عز وجل العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال عز من قائل : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أعز على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أحاقب » . . فكيف نقبل على عقولنا أن تُفسد وعلى قلوبنا أن تموت وعلى أبداننا أن تهلك ؟ !! واعجباً للذين يؤخرون التوبة أملاً فى أعمارهم الطويلة . . . والبعض لا يفكر فى التوبة إلا إذا أخذه المرض واشتد به الألم . . يقول الشاعر :

تتوب من الذنوب إذا مرضنا	وترجع للذنوب إذا برئنا
إذا ما الضرُّ مسك أنت باك	وأخبث ما تكون إذا قويت
فكم من كربة نجاك منها	وكم كشف البلبا إذا بكينا
أما تخشى بأن تأتى المنايا	وأنت على الخطايا قد دهيتا
وتنسى فضل رب جاد لطفًا	عليك ولا ارعويت ولا خشيتا
وكم عاهدت ثم نقضت عهدًا	وأنت لكل معروف نسيتا
فدارك قبل نقلك عن ديارك	إلى قبر إليه قد نعيتا

* الحشيشة داء القلوب:

نحذر من رفاق سوء . . وشلل الفساد . . وصحبة الإفساد . . أصحاب السلوك الأعوج الذين ييغون الفساد فى الأرض وينشرون بين شبابنا جرائم العفن الخلقى . . فتنقل عدوى السلوكيات حيث يزين الشيطان لهؤلاء أعمالهم الشريرة . بأن يحلوا ما حرم الله . . وبأن يصدوا الناس عن ذكر الله .

وأول ادعاءات رفاق السوء فى الآونة الأخيرة ادعاؤهم بأن الحشيشة حلال . .
وهذا كذب وإفتراء . . يُراد به تضليل الناس .

وفى هذا المجال يقول الإمام ابن تيمية فى الفتاوى :

« وهذه الحشيشة فإن أول ما بلغنا أنها ظهرت بين المسلمين فى أواخر المائة السادسة وأوائل السابعة حيث ظهرت دولة التتر . وكان ظهورها مع ظهور سيف - جنكسخان - لما أظهر الناس ما نهاهم الله ورسوله عنه من الذنوب سلط الله عليهم العدو . وكانت هذه الحشيشة المعلونة من أعظم المنكرات وهى شرٌّ من الشراب المسكر من بعض الوجوه والشراب المسكر شرٌّ منها من وجه آخر . . فإنها مع أنها تسكر أكلها حتى يبقى مسطولا تورث التخنيث (١) والديوث (٢) وتفسد المزاج فتجعل الكبير كالسفنجة وتوجب كثرة الأكل وتورث الجنون وكثير من الناس صار مجنوناً بسبب أكلها . . ومن الناس من يقول إنها تغير العقل فلا تسكر كالبنج . . وليس كذلك بل تورث نشوة ولذة وطرباً كالخمر . . وهذا هو الداعى إلى تناولها وقليلها يدعو إلى كثيرها كالشراب المسكر والمعتاد لها يصعب عليه فطامه عنها أكثر من الخمر فضررها من بعض الوجوه أعظم من الخمر . . فمن سكر من شراب أو حشيشة مسكرة لم يحل له قربان المسجد حتى يصحوا ولا تصح صلاته حتى يعلم ما يقول . ولا بد أن يغسل فمه ويديه وثيابه فى هذا وهذا . . والصلاة فرض عليه لكن لا تقبل منه حتى يتوب أربعين يوماً كما قال النبى ﷺ :

« مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ يَقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . فَإِنْ عَادَ فَشَرِبَهَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ . . قيل : وما طينة الحبال؟ قال : عصارة أهل النار أو عرق أهل النار .. » .

(١) الرجل الخنث : هو الذى يشبه النساء فى تصرفاته ويموت قلبه عن الشهامة والشجاعة .

(٢) الديوث الرجل الذى لا يغار على أهله .

وأما قول السائل إن هذه ما فيها آية ولا حديث فهذا من جهله فإن القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة هي قواعد عامة وقضايا كلية تتناول كل ما دخل فيها وكل ما دخل فيها فهو مذكور في القرآن والحديث باسمه العام وإلا فلا يمكن ذكر كل شيء باسمه الخاص فإن الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع الخلق وقال :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

فاسم الناس والعالمين يدخل فيه العرب وغير العرب من الفرس والروم والحضر والبربر . . فلو قال قائل إن محمداً ﷺ ما أرسل إلى الترك والهند والبربر لأن الله لم يذكرهم في القرآن كان جاهلاً كما لو قال : إن الله لم يرسله إلى بني تميم وبني أسد وبني غطفان وغير ذلك من قبائل العرب ، فإن الله لم يذكر هذه القبائل بأسمائها الخاصة . وكما لو قال : إن الله لم يرسل إلى أبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم من قريش لأن الله لم يذكرهم بأسمائهم الخاصة في القرآن . . وكذلك لما قال : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٥) . دخل في الميسر الذي لم تعرفه العرب ولم يعرفه النبي ﷺ وكل الميسر حرام باتفاق المسلمين وإن لم يعرفه النبي ﷺ

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) سبأ : ٢٨ .

(٣) الفرقان : ٢ .

(٤) الأنبياء : ١٠٧ .

(٥) المائدة : ٩٠ .

كاللعب بالشطرنج وغيره بالعوض فإنه حرام بإجماع المسلمين . وهو الميسر
الذى حرمه الله ولم يكن على عهد النبي ﷺ . أ . ه .

فيا أصحاب القلوب المؤمنة احذروا هذه الآفات التى إن عرفت طريقها
لقلوبكم أصابتها العلل التى تؤدى إلى هلاكها . . . فاحذروا الأوبئة الاجتماعية
التي سرعان ما تنقل من أسرة إلى أسرة .

* * *

ظلمات القلوب

قلب المؤمن يُضاء بالإيمان ويتلأأ بتقوى الرحمن ويطمئن بذكره سبحانه وتعالى . . وكلما كثر ذكر الله في القلب كلما كان نقيًا شفافًا كالزجاج . . يتأثر ويتأثر . . سريع الاتصال بخالقه سبحانه . . يخشع في دعائه ويرحم غيره و تأخذه الخشية عند سماع القرآن الكريم . . فهو قلب وضاءً براق .

أما قلب المذنب الذي يصر على الذنوب ويكثر منها ويتمتع بها . فإن السواد يكثر فيه حتي يصير قلبًا مظلمًا . جاحدًا جامدًا لا رحمة فيه ولا خشوع . . قلوب كالحجارة أو أشد قسوة – وهذا هو الران الذي يحيل القلب إلى أوعية خربةٍ لهوى النفس وتسير حسب أمر الشيطان . . وهناك كثير من الآثام التي تظلم القلوب فتورثها القسوة وتضع عليها الغشاوة . . ومن ذلك :

- * ظلم الآخرين .
- * آلات اللهو ومزامير الشيطان .
- * حب الشهوات .
- * إغفال الأذكار .
- * تضييع الفرائض .
- * رفاق السوء .
- * المال الحرام .
- * عشق القلب للنساء .
- * أفعال الجاهلية .
- * عدم تذكر الموت .

* الانشغال بأعمال السحر .

* عقوق الوالدين .

* الربا .

* الكذب وشهادة الزور .

* خيانة الأمانة .

* الإساءة للجيران .

* هجر القرآن وإهمال السنة .

* التطفيف فى الكيل والميزان .

* النفاق .

* السرقة .

* الزنا ومقدماته أو ما يقرب إليه .

* الغيبة والنميمة وتتبع عورات الناس .

* الخمر والميسر .

* المجاهرة بالمعاصى .

* قذف المحصنات الغافلات .

فاحذر - أخى القارئ - كل ذلك وما يقرب إليه أو يدعُ إليه . . . واعلم أننا لو تناولنا كل ذلك بالشرح والتفصيل لبيان أثره على قلب الإنسان لطال الحديث . . . ولكن أرانى مشدوداً إلى الحديث عن الظلم . . . الذى يطبق على القلب فتغيب منه الشفافية ويكثر به القسوة والغلظة . . . وأظلم الناس من ظلم نفسه . . . وذلك بالإشراك بالخالق سبحانه وتعالى . . . ولذا نجد لقمان عليه السلام يعظ ولده . . . ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) وكذلك القلب الذى لا يخاف الله فيتجرأ على الاعتداء على الغير ولا يحترم حدود الله إن ذلك ظلم بين . . . يقول الله عز وجل :

(١) لقمان : ١٣ .

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (١) .

أما ظلم الغير فهذه مصيبة كبرى لا يدرك أثرها إلا أصحاب القلوب العامرة . . لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . . وقد قال الله عز وجل
فى الحديث القدسى الجليل :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » . .
وقد يعيش القلب الظالم فى غطرسة الخلد التى يمنيه الشيطان بها ويظن أن الله
ليس بمطلع عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول :
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢) .

هل يتذكر أصحاب القلوب الظالمة أن الموت ليس براحة لهم ولكنه الموت
الذى بعده الحساب والعقاب . . فالظالم فى الدنيا شقى وفى الآخرة شقى . .
يقول الشاعر :

ولو أنا إذا متنا تركنا	لكان الموت راحة كل حى
ولكننا إذا متنا بعثنا	ونُسألُ بعده عن كل شىء
ونُصلى حر نارٍ إن عصينا	وإلا نحظ بالعيش الرخى

وانظر إلى قول الله عز وجل :

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (٣) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَمِينَهُ فَقَدْ أَوْجِبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ،

(١) الطلاق : ١ .

(٢) إبراهيم : ٤٢ .

(٣) غافر : ١٨ .

قال رجل وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله قال: وإن كان قضيباً من أراك « (١) .

وروى البيهقي عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال أبو هريرة : كذب والذي نفسى بيده إن الحبارى لتموت هزلاً من خطايا بنى آدم . يعنى إذا كثرت الخطايا منع الله تعالى القطر عن أهل الأرض وإنما يصيب الطير من الحب والثمر على قدر القطر « .

هل من مخرج ؟

ولكن هل هناك من مخرج من هذه الظلمات التى تضع الرآن على القلب فتصيبه بالأمراض التى قد تؤدى إلى هلاكه ؟ . . نقول : نعم . . لأن رحمة الله واسعة وفضله عظيم وباب التوبة مفتوح . . فإن سارع العبد بالتوبة النصوح والاستغفار من ذنبه والرجوع إلى ربه . . يكون قد أنقذ نفسه من هذا الهلاك . . والله عز وجل يقول :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَكُنْ لَهُ أَثَرٌ ۚ وَالَّذِينَ يَصِرُوا عَلَىٰ مَآعِلِهِمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٣) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) .

(١) أخرجه مسلم ١/ ١٢٢ فى الإيمان .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) النساء : ١١٠ .

(٤) المائدة : ٣٩ .

هذا هو المخرج وهو الفرصة التي امتن الله بها على عباده . . فما أجمل الإسراع بالتوبة النصوح التي تُتَوَجُّ بفعل الصالحات .
* قلوب سليمة وقلوب مفلسة :

إنه حال القلوب في الدنيا التي تنظر مكابتها في الآخرة . . فلا تستوى قلوب الذاكرين مع قلوب الغافلين . . ولا تستوى قلوب أضواءها العدل مع قلوب أظلمها الجور . . لا تستوي قلوب شُغلت بذكر الله مع قلوب أكلها الحقد والحسد . . لا تستوى قلوب ترتقى كل يوم بتقوي الله والمسارة في الخيرات مع قلوب رنت عليه الذنوب وأخذتها شهوات الدنيا وأسرفت في ريتها حتى نسيت حق ربها وحق العباد . . وفي هذه القلوب يحدثنا القرآن الكريم . . يقول الله عز وجل :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل :

﴿ وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ (٢) .

وحتى تظل القلوب ذاكرة خاشعة يتلألأ فيها نور الإيمان . . كان فضل الله عظيمًا على الإنسان الذي يعود إلى ربه فيقبله بل ويبدل سيئاته حسنات . . والله عز وجل يقول :

﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) ﴾ (٣)

ثم تأتي الآيات في نفس السياق وفي نفس السورة — تستحث القلوب على

(١) الشعراء : ٨٨ — ٨٩ .

(٢) الصافات : ٨٣ — ٨٤ .

(٣) ق : ٣٢ — ٣٤ .

اليقظة وإدراك الفرصة (فرصة التوبة) قبل فوات الأوان . . يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

وهناك من القلوب من تأتي يوم القيامة مفلسة لا رصيد لها عند ربها . . لأنها أضاعت حياتها وفجأة يأتيها الموت .

جاء في صحيح مسلم — عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . . فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » .

وإن أناسًا يدخلون النار مع أنهم كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون . . فيقول الرسول ﷺ متعجبًا — ما لهؤلاء فيقال : إنهم كانوا يصلون كما يصلون الناس ويصومون كما يصوم الناس ويزكون كما يزكي الناس ويحجون كما يحج الناس إلا أنهم كانوا إذا عُرِضَ عليهم شيء من الحرام أخذوه فأحبط الله أعمالهم .

نحن الآن في دار الابتلاء والاختبار — في دار العمل . في الدنيا التي غداً سوف تولى عنا وتعطينا ظهرها ويبقى العبد أمام ربه فليُنظر كيف يلقيه ؟

* * *

(١) ق : ٣٧ .

إحياء القلوب

* الإيمان .

* الخشوع .

* التقوى .

* الدعاء .

الإيمان

الإيمان بالله هو الأساس الذي تُبنى عليه قواعد الإسلام ومعرفة أمور الدين . . . إذ أن مَنْ لا إيمان عنده لا فائدة في عمله . . . بل لا قيمة لحياته . . .

لقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين يدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له . . . يقول رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وهذا واضح جليٌّ في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١)

وإن أول ما يُلفت الله عز وجل نظر الإنسان إليه ليدعوه للإيمان به . أن ينظر الإنسان في نفسه . ليعرف مَنْ الذي خلقه ؟ ومن الذي يحييه ؟ وَمَنْ الذي يرزقه ؟ مَنْ الذي يحرك قلبه ؟ أليس هو الله . . . الذي يقول في محكم التنزيل :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه وتعالى :

(١) البينة : ٥ .

(٢) الذاريات : ٢١ .

(٣) الانفطار : ٨ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ (١) .

ثم يلفت نظر القلوب الثاقبة المفكرة المتدبرة إلى ما فى الكون حتى يعمق الإيمان فيها بل ويقويه ويزينه . . فيقول لنا سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾ (٢) .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

ثم يلفت الله أبصار القلوب إلى الكون وبديع صنعته وما فيه من آيات لأولى الألباب . فيقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَعْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) ﴾ (٤) .

(١) البلد : ١٠ .

(٢) النبأ : ٦ - ١٦ .

(٣) البقرة : ١٦٤ .

(٤) نوح : ١٥ - ١٨ .

واعلم — أخا الإسلام — أن الإيمان يزيد وينقص في قلب العبد بفعل الطاعات يزيد، وبالمعاصي ينقص يقول الله عز وجل : ﴿ فزادهم إيماناً ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ وعلى ذلك فإن القلب الذى يقل فيه الإيمان يصبح قلباً مريضاً يحتاج إلى عناية ومراقبة حتى يفيق ويصحو — فإن تُرك وأهملَ ازداد مرضاً ونقص نوره حتى ينطفئ وقد يموت — فيطبع الله عليه — فلا يدرك من لذة الإيمان شيء يعيش كالبهائم تأكل وترتع .

* * *

الخشوع

إذا كان لكل شىء روح فروح العبادة الخشوع وأهم العبادات الصلاة . .
التي يقول الله عز وجل فيها : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ ۝ (٢)﴾ (١) ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه .

إن الخشوع سكينة فى القلب لا يحس بها إلا القلب الحى النابض بذكر الله
المتلألاً بتقواه . . ويا سبحان الله . . كيف أن بعض قلوب البشر تقسو
وتتحجر حتى أنها بالقرآن لا تتأثر . . والله عز وجل يقول :

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (٢)﴾ .

إن الصلاة بما تحتويه من ذكر ودعاء وركوع وسجود لتجعل القلب لربه
خاشعاً ، والعقل فى نعم ربه متدبراً . . فلا صلاة بدون خشوع ولا سجود
بدون تواضع . . فإن أردت أن يحيا قلبك فاجعله بذكر الله مطمئناً ولعظمته
متواضعاً وبين يديه خاشعاً . . والله عز وجل يذكر القلوب بالخشوع لذكره
سبحانه فيقول :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا
كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَاسِقُونَ ۝ (٣)﴾ .

(١) المؤمنون : ١ - ٢ .

(٢) الحشر : ٢١ .

(٣) الحديد : ١٦ .

نعوذ بالله من القلوب القاسية التى لا تسمع إلا نداء شهواتها ولا تخضع إلا
للمذات بطونها. . فى نهارها للحرام عاشقة وفى ليلها على عباد الله ناقمة . .
إنها قلوب لنعم الله جاحدة .

وقد امتدح الله أصحاب القلوب الواعية والأفئدة المتواضعة . . وقد جاءت
صفات المؤمنين للذكور والإناث فى قوله تعالى - الذى به يذكر القلوب :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ
كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

إنها صفات بها تصفو القلوب وترقى بها الأرواح والمحافظ عليها بصدق
وإخلاص ينال رضا الله . بل تتوج حياته بالمغفرة ويمنح الأجر العظيم فى
الآخرة . . نعم إن نور اليقين فى القلوب يزينها وتقوي الله تزودها .

* * *

(١) الأحزاب : ٣٥ .

التقوى زاد القلوب

ما الإيمان فى قلوب المؤمنين إلا شجرة تُروى وتتزود بتقوى الله . . والتقوى نور للبصائر وهداية للبصر . . والقلوب التى لا تعرف تقوى ربها قلوب مستذلة بشهوات الدنيا محرومة من خير الآخرة . . . ولا يدرك عظمة وقيمة تقوى الله إلا أصحاب العقول الناضجة والأنفس الزكية . . يقول الله عز وجل:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ (١)

وإذا كانت التقوى باب اليقين للقلوب فهى مفتاح العلم للأفئدة . فكلما زادت تقوى القلب كلما زاد علمه ونقص جهله . . يقول الله عز وجل :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وعلى قلوب المؤمنين التى رضى الله عنها فعمق فيها الإيمان به وزودها بتقواها وجعلها من المسارعين فى الخيرات أن تحافظ على ذلك حتى تلقى الله عز وجل . لأنه سبحانه وتعالى يخاطبها بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

إن تقوى القلوب لا تتوقف عند مجرد الخوف من الله والخشية من عظمته والبُعد عن المحرمات والوقوف على حدوده . ولكنها تنتقل إلى الجانب الإيجابى فى حياة المسلم فتدفعه إلى الخير بل إلى التنافس فى إصلاح ذات البين

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) البقرة : ٢٨٢ .

(٣) آل عمران : ١٠٢ .

ودعوة الآخرين إلى التعاون والحب ومساعدة الضعفاء . . أليس في كل ذلك حياة للقلوب ؟ . . . والله سبحانه يقول :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وسئل الإمام على - كرم الله وجهه - عن التقوى فقال :

« التقوى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل » .

ولتعلم القلوب أن تقواها الله نور لها في حياتها وراد لها عند ربها . . . فبالتقوى يخفف الله على العبد سكرات الموت ، وبالتقوى يسر الله لك أمور دنياك ويفهمك دينك قاله يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٣) .

وفى تأمين العبد من فزع الآخرة يقول الحق لعباده :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤) .

فهل تستوى قلوب تلقى الله مستبشرة بعملها سعيدة بلقاء ربها مع قلوب عاشت في العصيان وطغى عليها الرآن حتى صدأت كما يصدأ الحديد . . . إن الله

(١) آل عمران : ١٣٣ .

(٢) الأنفال : ١ .

(٣) الطلاق : ١ - ٢ .

(٤) الحج : ١ .

أعد لأهل التقوى خيراً فى الآخرة وبشرهم به فى دنياهم... يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَإِلَاسْحَارِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ (١).

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ (٢) .

لقد جاء الرباط فى القرآن الكريم بين الصدق والتقوى . . وبين العمل الصالح والتقوى . . وبين الوفاء والتقوى . . وبين حب الله وطاعة رسوله والتقوى . . وبين النجاة من أزمات الدنيا والتقوى . . وبين حسن التوكل على الله والتقوى . . وبين المسارعة للخيرات والتقوى . . فكان التقوى هي روح كل القيم والمبادئ . روح الخير والحب بل روح تسرى فى القلوب لتعيد إليها الحياة بعد الموت . والتذكر بعد الغفلة . والرضا بعد السخط . والحب بعد العداوة . . حقاً إن التقوى شريان حياة القلوب .

* * *

(١) الذاريات : ١٥ - ١٨ .

(٢) القمر : ٥٤ .

الدعاء حياة القلوب

الدعاء أساس كل عبادة — لأن فيه التوجه إلى المعبود سبحانه والخشوع له والتذلل بين يديه . . ولذا كان القول : إن الدعاء مخ العبادة . . وقد عرف العلماء الصلاة بأنها : أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم .

والدعاء مخرج القلوب من الأزمات وطريقها للخروج من المشكلات — وبه تنزل السكينة وتنزل الرحمات . . من رب الأرض والسموات . . مجيب دعاء المضطرين وكاشف الضر عن البائسين . . وهناك مغزى كبير يحمله الدعاء وهو أن الداعي يعترف بقدرة الله ويقر بعجز نفسه أمامه سبحانه وتعالى . . وفي ذلك أكبر وأعظم مظهر من مظاهر العبودية .

ومن كرم الله عز وجل أنه يُحب أن يدعوه عبده ويغضب إن ترك الدعاء . . وخاصة في المحن والأزمات ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلُوبًا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢) .

(١) الأنعام : ٤٣ .

(٢) غافر : ٦٠ .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) .

وإلى القلوب التي تنشئ الدعاء نقول : أكثروا من الدعاء فقد ورد أن الدعاء والبلاء فى كبد السماء يعتلكان فإما أن يلطف الله فى القضاء وإما أن يرفع البلاء .

فليكن قلب المؤمن فى الدعاء موقناً بالقبول غير متردد أو متشكك لأن فضل الله واسع . . ولأنه ورد أن الله عز وجل يستحى أن يرد يدى عبد مؤمن زفهما بالدعاء . . ويقول رسول الله ﷺ :

« لا ينبغي لأحدكم أن يقول : اللهم اغفر لي إن شئت ولكن يجزم ويقول : اللهم اغفر لي » .

ورحمة الله واسعة . . والطمع فيما عند الله ليس بحرج ولكنه طلباً من الكريم الذي لا تنفذ خزائنه . . ، الله عز وجل يقول فى الحديث القدسى الجليل : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وقفوا فى صعيد واحد وسألونى فأعطيت كلاً مسألة ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » . . .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى آخر :

« عبدى اشغل قلبك بذكرى أملؤهُ غنى وأسد فقره » .

وكيف لا تحى القلوب بالدعاء إلى الله . . وهو سبحانه — كما ورد — ينزل إلى السماء الدنيا ليلاً فينادى هل من مسيء بالنهار فأغفر له . . وينزل بالنهار فينادى هل من مسيء بالليل فأغفر له « (٢) .

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) قيل : إن نزول الله معناه نزول ملائكة الدعاء والرحمة .

ويقول رسول الله ﷺ :

« دعوة المسلم لا تُرد إلا لإحدى ثلاث — ما لم يدع يائماً أو قطيعة رحم — إما أن يُعمل له في الدنيا وإما أن يُدخَر له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا » ...

أخى المسلم . . عليك أن تأخذ بالأسباب في الدعاء فإن هناك من الأمور ما يجب مراعاتها من ذلك :

* أن يكون مطعمك حلالاً ومشربك حلالاً وملبسك حلالاً . . لأن سعد ابن أبي وقاص ذهب للنبي ﷺ وقال له : يا رسول الله ادع الله لى أن أكون مستجاب الدعوة . . قال له ﷺ : « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » .

* الدعاء بخير : بمعنى ألا تدعو بشر أبداً حتى يقبل الله منك .

* أن تتحرى — مواطن الدعاء في الزمان والمكان فهناك أماكن طاهرة وأوقات مباركة .

فالدعاء في المسجد الحرام أو المسجد الأقصى أو مسجد رسول الله ﷺ ليس كالدعاء في أماكن أخرى . . وكذلك الدعاء على عرفات ويوم عرفة وليلة القدر ووقت الشدة . . ووقت السحر — الثلث الأخير من الليل — والدعاء في العشر الأواخر من رمضان . والدعاء بعد ختم القرآن . . وكذلك الدعاء يرتبط بالداعي وقوة إيمانه وصدق علاقته مع ربه .

وعن أنس قال : أصاب الناس سنة (١) على عهد رسول الله ﷺ بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة . قام أعرابي فقال : يا رسول الله : هلك

(١) السنة : القحط .

المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع يديه وما نرى فى السماء قزعة (١)
فوالذى نفسى بيده ، ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم يتزل
عن منبره ، حتى رأيت المطر يتمادر على لحيته ، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد
ومن بعد الغد حتى يوم الجمعة الأخرى » .

وقد شرعت صلاة الاستقساء وهى صلاة فيها الدعاء والتضرع إلى الله
والاعتراف بالذنب والاستغفار وتفويض الأمر لله عز وجل .

* * *

(٢) القزعة : السحابة .

الدعاء للقلوب نور

لقد اختص الله عز وجل كل نبي بدعاء . . وكان دعاء نبينا محمد ﷺ هو ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ (١) .

ولعلك تري ما فى هذا الدعاء من تضرع القلب لربه لينزل عليه سكينه ويهديه سواء السبيل ويجعله على الحق واليقين ويلزمه سلطاناً نصيراً .

وكان النبى ﷺ يقول :

« ما أصاب عبداً قط همٌّ أو حزنٌ فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدلٌ فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلوبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهب همى وغمى . إلا أذهب الله همه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً » (٢) .

ويقول رسول الله ﷺ : « مَنْ قرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة عند الكرب أغاثه الله تعالى » (٣) .

وكان — صلوات الله وسلامه عليه — يقول : إذا خرج إلى الصلاة : « بسم

(١) للإسراء : ٨٠ .

(٢) رواه أحمد والطبرانى عن ابن مسعود .

(٣) رواه ابن السنى عن أبى قتادة .

الله ، آمنت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بحق السائلين عليك ، وبحق مخرجي هذا ، فإنني لم أخرجك أشركاً ولا بطركاً ولا رياءً ولا سمعة ، خرجت إتغاء مرضاتك ، واتقاء سخطك ، أن تعيذني من النار وتدخلني الجنة» (١) .

وكان ﷺ إذا دخل المسجد يقول : « اللهم اغفر لي ، وافتح لي أبواب رحمتك » (٢) .

ويقول ﷺ:

« إذا سمعتم المؤذن قولوا مثل ما يقول وصلوا علىّ فإنه من صلى علىّ مرة صلى الله عليه عشرًا ، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها أعلى منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» (١) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت وهو مسند إلى ظهره يقول :

« اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى » (٢) .

إن الدعاء ليمد القلب المؤمن بفيوضات إلهية ورحمات ربانية تجعله في سعادة غامرة وفي ذكر دائم . . تجعله قلباً بالحب يفيض ويعطي الحنان ويتلألأ فيه نور الإيمان . . أسأل الله أن ينير قلوبنا وأبصارنا وأن يشرح صدورنا . إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

* * *

(١) أخرجه الدارقطني في الأفراد .

(٢) رواه أحمد في المستد (٢٨٢/٦) والترمذي رقم (٣١٤) .

خاتمة

الحمد لله رب العالمين . . الكبير المتعال . . الذى بيده مقاليد السموات والأرض . وسبحان من يقلب القلوب كيف يشاء . ويعلم منها سرها وجهرها .

ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد . .

فقد وفقنى الله عز وجل على إتمام هذا العمل المبارك والذى كان لى شرف الكتابة فيه . . وقد تناولنا فيه أهم ما فى الإنسان - الذى هو خليفة الله فى الأرض - تناولنا القلب . . والقلب يتناوله الأطباء من نواحيه العضوية . من آلام وأمراض . . أما نحن فقد تناولناه من الناحية المعنوية . . من ناحية الإيمان الذى به تحيى القلوب . . ومن ناحية التقوى التى بها تزود الأئمة .

وذكر داء القلوب الذى يمرضها وبعض الأحيان يهلكها - مثل الكذب ، والنفاق ، والرياء ، والخمر ، وما إلى ذلك من أمراض فتاكة قتالة . .

وذكرنا أيضاً كيفية الخروج من ذلك كله وأهم باب فى الخروج هو التوبة النصوح التى يتبعها العمل الصالح . .

كما تناولنا إتماماً للمعرفة حياة الغافلين ، الذين جعلوا الحياة الدنيا لهواً ولعباً وغرتهم الأمانى وأغراهم الشيطان بالخلد فى الدنيا وخذلهم فى الآخرة . بل تبرأ منهم . .

إنهم الضعفاء إيماناً ، المرضى قلوباً ، الخاوية من ذكر الله أفئدتهم . . ثم تناولنا إحياء القلوب وأول ذلك الإيمان ، والذكر ، والتقوى . .

ونحمد الله أن وفقنا لهذا العمل المتواضع الذى نسأل الله عز وجل أن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم . .

هذا وبالله التوفيق ،

محمد الصايم

القاهرة - المعادى الجديدة - صقر قريش

عمارة ١٩٥

فهرس الكتاب

الصفحة

٥	* مقدمة
٧	* القلب - أصله ومعناه .
٨	* - القلب .
٨	* - القلب وعاء .
١٠	* - القلوب القاسية .
١١	* القلب ملك الأعضاء .
١٣	* كيف تموت القلوب .
١٤	* - الشيطان يسيطر على القلب .
١٧	* القلب وسلطان الهوي .
٢٠	* الكبر يقتل القلوب .
٢٢	* قلوب التكبرين .
٢٥	* الرياء مرض فتاك .
٢٨	* الحسد يأكل القلوب .
٣٠	* حب الدنيا يميئ القلوب .
٣٤	* معنى الزهد فى الدنيا .
٣٧	* الغنية سوس القلوب .
٤٠	* حياة الغافلين .
٤١	* - الغافلون .
٤٢	* - قلوب الغافلين .
٤٤	* حياة اللهو واللعب .
٤٧	* الغافلون وأم الكبائر .
٤٩	* المخدرات مسكرات .
٥٠	* الحشيشة داء القلوب .
٥٤	* ظلمات القلوب .
٥٧	* هل من مخرج ؟
٥٨	* قلوب سليمة وقلوب مفلسة .
٦٠	* إجابة القلوب .
٦١	* - الإيمان .
٦٤	* - الخشوع .
٦٦	* - التقوى زاد القلوب .
٦٩	* - الدعاء حياة القلوب .
٧٣	* - الدعاء للقلوب نور .
٧٥	* خاتمة
٧٨	* فهرس الكتاب

تم بحمد الله

هذا الكتاب

- ❑ الكتاب شامل لوصف موضوعى لأعراض القلوب التى تتعاقب من كثرة الذنوب.
- ❑ إهمال القلوب الغافلة الذى يؤدى إلى موتها فتعيش لنفسها لا ترى غيرها ولا تتذكر ربها.
- ❑ كتابنا به مفاتيح التوبة وشروطها وكيفية تحقيقها. وكذا علاج القلب العليل.
- ❑ الطهارة - والدعاء - والذكر والاستغفار سلوك لا بد من تطبيقه لإخراج القلب الغافل من عالم الظلمات إلى نور الهدى.
- ❑ فى الكتاب بيان لمضار الشهوات والإسراف فى الملذات وأثر كل ذلك على حياة القلوب المؤمنة.
- ❑ كتابنا تحذير هام لهؤلاء الذين أخذتهم الدنيا واستحوذ عليهم الشيطان ونسوا ذكر الرحمن.
- ❑ الكتاب لا غنى لأى بيت مسلم عنه لأنه هداية للنفوس ومناصرة للقلوب.

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠